

وإذا كان يعجبنا الاهتمام الغربي بالمكتبات وتركيزه عليها من واقع معرفته بدورها في التشييد والبناء الحضاري، فإن الماضي يشهد أن ذلك ما فعله الآباء والأجداد، فكانت المكتبة في المدينة الكبيرة والقرية الصغيرة مفتوحة للجميع، وكل ذلك اعتماداً على الوقف، دون أن ينتظر الفرد أن تقوم الدولة بإنشاء المدرسة ثم المكتبة أو المكتبة العامة، أو الجامع والمكتبة.

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح نشأة ومسار المكتبة العربية التي اعتمدت على الوقف أو قامت عليه، دون تناول المكتبات الخاصة أو تلك التي لم يثبت ما يؤيد وقفها كل ذلك اعتماداً على الشواهد التراثية طالما توفرت، مع الإستعانة بأعمال حديثة عند عدم توفر النص التراثي، وعدم التوفر غالباً ما يكون عجزاً وكسلاً من الباحث نفسه.

وتنطق الدراسة من مجموعة من المسلمات التي تتمحور حول التالي :

- ١ — أن وقف الكتب عند المسلمين كان العامل الأساسي في توفير المعرفة لطلاب العلم على مدى قرون طويلة.
- ٢ — أن هذا النمط من الوقف أسهم في انتشار المكتبات بأنواعها المختلفة في التاريخ الإسلامي.
- ٣ — أن الكتب الوقفية تبذرت وفقد منها الكثير نتيجة للإهمال وتعرضها للسرقة والنهب.
- ٤ — أن أغلب التراث العربي الإسلامي المخطوط الذي تضمنه المكتبات في العالم كان نتيجة لتجميع المكتبات الوقفية في العصر الحديث، أو التصرف في الكتب الوقفية بالبيع، وبالتالي قيام أفراد أو هيئات بشرائها ووضعها في مكتبات من جديد.

الدراسات السابقة :

تعرض مجموعة من الباحثين العرب لموضوع وقف الكتب والمكتبات من بينهم الدكتور عبد اللطيف إبراهيم أستاذ الوثائق في قسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب بجامعة القاهرة الذي وضع مجموعة من الدراسات الوثائقية التي كشفت جوانب من هذا الموضوع ، وقد جمع تلك الدراسات ونشرها في كتاب بعنوان :

دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية صدر في القاهرة عام ١٩٦٢ / ١٣٨٢ هـ، واشتمل على خمسة بحوث أولها بعنوان (المكتبة المملوكية) تناول فيها واقع المكتبات في ذلك العصر، ومن الأمور التي عرض لها قضية اختيار الكتب وتزويد المكتبة فذكر أن الواقف وهو منشيء المدرسة عادة، كان يحبس على خزانتها مجموعة من الكتب والمصاحف التي كانت تحتويها خزائنه الخاصة وغيرها من أدوات الكتابة^(٢٢) إضافة إلى شراء كتب أخرى، ومن ثم وقفها على المدرسة، ووضع علامة وقفه عليها^(٢٣).

وكان البحث الثاني بعنوان (مكتبة في وثيقة وقفية دراسة للمكتبة ونشر الوثيقة) عرض فيه لوثيقة علي بن سليمان الإبادي المالكي، والمسجلة في عام ٩١٩ هـ، والتي تضمنت وقف منزل ومكتبة خاصة بما فيها من كتب وأدوات، وقد أشار في دراسته هذه إلى مجموعة من الكتب الوقفية في مختلف الموضوعات.

وفي الدراسة الثالثة وهي بعنوان (وثيقة بإستلام كتب: دراسة وتحليل ونشر) عرض فيها وثيقة إدارية وهي عبارة عن كشف بالكتب الوقفية التي تسلمها أحد أمناء المكتبات في العصر المملوكي، وهو الشيخ شمس الدين محمد بن جمال الدين عبد الله بن عبد العزيز المغربي، من الواقف وهو عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المالكي، ويعود تاريخها إلى عام ٨٨٣ هجرية.

أما الدراسة الخامسة فكانت بعنوان (مكتبة عثمانية: دراسة نقدية ونشر لرصيد المكتبة) عرض فيها لوثيقة وقف الأمير محمد بك أبو الذهب التي ضمنها وقفه لمكتبته على طلبة العلم بجامعه، ويعود تاريخها إلى عام ١١٨٨ هـ.

وتعتبر دراسات الدكتور عبد اللطيف إبراهيم على درجة كبيرة من الأهمية نظراً لاعتماده فيها على نصوص وثائقية قام بتحليل محتواها ونشر نصوص أغلبها.

والعمل الثاني الذي يمكن أن نشير إليه في هذا المجال هو :

خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة:

لكوركيس عواد، وقد نشر في بغداد عام ١٩٤٨ م ثم أعادت نشره دار الرائد

في بيروت عام ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، وقد أشار كوركيس عواد في كتابه هذا إلى مجموعة كبيرة من خزائن الكتب الوقفية على مر العصور في العراق من مثل دار العلم بالموصل وخزانة المدرسة المستنصرية في بغداد وغيرهما... استقى معلوماته من كثير من المصادر التراثية القديمة.

وهناك أيضاً كتاب: بيت الحكمة لسعيد الديوه جي الذي نشرته مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في الموصل عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م، وقد عرض الديوه جي في هذا الكتاب لمجموعة من المكتبات القديمة مثل بيت الحكمة في بغداد، وبيت الحكمة في القيروان، ودار الحكمة في القاهرة، ودار الحكمة في طرابلس، ودار الحكمة في مراغة، ودار العلم في الموصل التي وقفها جعفر بن حمدان، ودار العلم في بغداد التي وقفها سابور بن أردشير.

كما عرض لموضوع الوقف الدكتور محمد ماهر حمادة في كتابه. المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما. وصدر عن مؤسسة الرسالة في عام ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ثم نشر مرة أخرى عن الدار نفسها في عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، وقد أشار في ثنايا الكتب إلى بعض المكتبات الوقفية، كما تحدث عن قضية وقف الكتب وحسبها على المكتبات فذكر أن الوقف كان يعد مصدراً مهماً من مصادر تزويد المكتبات بالكتب، حيث درج الخلفاء والحكام والعلماء والأغنياء وأهل الخير على أن يوقفوا أشياء كثيرة على المساجد والمدارس والمعاهد والمشافي.. وكان للمكتبات نصيب موفور من حسنات المحسنين وأوقاف الواقفين^(٢٤).

وشارك عبد الله الحبشي بعرض جوانب من وقف الكتب عند المسلمين في كتابه. الكتاب في الحضارة الإسلامية الذي نشرته شركة مؤسسة الربيعان للنشر والتوزيع في الكويت عام ١٩٨٢م، وأغلب ما يتعلق بالوقف نجده في الجزء الذي تحدث فيه عن جمع الكتب والاحتفاظ بها.

والمح الدكتور عبد الستار الحلوجي إلى بعض المكتبات الوقفية في كتابه. المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري، الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام ١٣٩٨هـ.